

الرحلة

كان يسوع نائماً في قاع السفينة، بينما الرياح تعصف بالشراع وبقلوب التلاميذ. كانت المياه تدخل الى المركب وهي تنن تحت ضغط العاصفة، وأخشابها تكاد تنتثر من ضربات الأمواج، والسيد نائم نوماً عميقاً!

نظر إليه التلاميذ وتعجبوا، إلى هذا الحد يأخذه السبات فلا يدري بما يحدث ولا يبالي بنا، نحن الذين دعانا أحبائاً وإخوة، نحن الذين اصطفانا لرفقته، كيف يهملنا هكذا. كان الجميع يصيحون في هلع بينما السيد يبدو وكأنه في عالم آخر. كان السيد نائماً.

تحول الجمع الى بطرس، أنت الصياد الكبير ، أنت أدرانا بالبحر وأهواءه ونزعاته، إفعل شيئاً. أسرع بطرس ينزل القلوع ويحكم أربطة السفينة ويوثق الدفة برباط متين، ثم يهيب بأخيه: إندراوس، لقد ابجرنا معاً آلاف المرات، فامسك بالدفة واسمعي كلما أقبلت الأمواج إحرص على أن تجعل مقدمة السفينة في مواجهتها، إياك وأن تحاول الهرب، واجه الموجة فنخترقها بمعونة الرب.

اشتدت العاصفة واطلمت السماء وألقت السحب بمكنون قلوبها ، مطراً ثقيلاً مثلجاً، فارتعدت فرائص التلاميذ خوفاً وبرداً. امدراس متمسك بالدفة ولكن تيار السطح قوي يطيح بها يميناً ويساراً فلا يملك له دفعاً. بطرس ماذا أفعل قل شيئاً.

تحول بطرس في وجوم الى إخوانه. لقد ركبت متن هذا البحر آلاف الأيام والليالي ، وكنت أظن أنني أدرى الناس بتقلباته، وأخب الصيادين بعواصفه. كنت أسبر غور الأنواء بشجاعتي، حتى ظننت أن البحر يعمل لي حساباً! لككني لم أر مثل هذا قط. لم اختبر أبداً تلك الظلمة الدامسة، والرياح التي تغير اتجاهها في كل لحظة، والأمواج التي تنقض من كل جانب. إن عاصفة الليلة قد جرحت كبريائي جرحاً شديداً، أنا الذي ظننت نفسي سيداً للبحر وعمدةً في شؤنه، أكاد أصرخ كطفل من الفزع والغضب. نعم الغضب. لماذا تكون العاصفة بهذه القسوة، ولم تصيبنا في هذه الليلة بالذات. إن هذه الرحلة لم تكن ضرورية أبداً. لست أدري فكرة من أن نعبر الليلة؟

أجل إنها فكرة المعلم. لقد أراد السيد أن نجتاز الى العبر، لست أدري لماذا؟ ولكن أين هو السيد؟ نائم!! إنه حقاً وقت النوم! أما يبالي ، لقد أمر هو بالرحلة ثم يتركنا نواجه الهول ويذهب لينام!

يامعلم ، يامعلم!! صاح التلاميذ في غضب. استيقظ المعلم ونظر في عيونهم، وسرعان ما تحول غضبهم الى عتاب : يامعلم أما تبالي؟ أما يهملك أننا نهلك، إن الليلة تبدو بلا نجاة، لقد ضاع منا المخرج، وأنت نائم. يامعلم نحن خائفون.

وقف المعلم ونظر الى الرياح والأمواج والى السماء المظلمة، ذلك الناصري الرقيق البدن، ذلك الهادئ الصوت. ولكنه ما أن قام وقد انتبه من نومه حتى أصبح شيئاً آخر. إن قوة ساحقة تتبع من هذه الإيماءات الوانية. نظر يسوع ثم صاح في الريح: إسكت! وفي البحر إياكم!، وإذا بكل الكون يهدأ ، وإذا بقوى الطبيعة الجبارة تتراجع مذعورة أمام النجار الفقير، وإذا بالنجوم تعود الى الظهور، وإذا بالرحلة تصبح نزهة ممتعة. ثم تحول الى تلاميذه: ما بالكم خائفين هكذا، أين إيمانكم؟